جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
مكتب تنسيق التعريب
الربـــاط

اللسان العربي

يشتمل هذا العدد على :

I- أبحاث ودراسات لغوية

II- أعمال "ندوة استثمار المصطلح الموحد الصادر عن مؤتمرات التعريب"
المنعقدة بالرباط أيام 29-2001/10/31

العدد: الرابع و الخمسون (54) شوال 1423 هـ/ديسمبر (كانون الأول) 2002 م

وظائـــف اللـــغة

م.أ.ك. هاليداي

ترجمة : د. محمود أحمد نحلة (*)

التمهيد للترجمة :

صاحب هذا البحث علم شامخ من أعلام مدرسة لندن في علم اللغة هو مايكل ألكسندر كيركوود هاليداي . ولد في ليدز- يوركشايربإنجلترا سنة 1925م لأسرة جامعية. كان أبوه ولفريد ج. هاليداي (1889-1975) مديراً لإحدى المدارس، وقام بعد تقاعده بدور أساسي في جمع المادة اللهجية الخاصة بشمال إنجلترا في كتاب هارولد أورتون: مسح عام للهجات الإنجليزية Survey of. .English Dialects.

حصل هاليداي على البكالوريوس في اللغة الصينية وآدابها من جامعة لندن، ودرس بعد تخرجه علم اللغة في جامعة بكين،ثم في كامبردج،حيث حصل على الدكتوراه سنة 1955 .

بعد أن شغل بعض الوظائف في كامبردج وإدنبره انتقل إلى الكلية الجامعية بلندن، سنة 1963، ليعمل مديراً لمركز أبحاث الاتصال، حيث أدار مشروعين بحثيين مهمين، أحدهما عن الخصائص اللغوية للإنجليزية العلمية، والثاني عن علم اللغة وتعليم الإنجليزية. وفي سنة 1965 م عين أستاذاً لعلم اللغة العام بالكلية الجامعية بلندن، وقد ظل يعمل بها حتى نهاية 1970 م.

في المدة من 72-1973 كان زميلاً لمركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية في ستانفورد بكاليفورنيا، ثم عمل أستاذاً لعلم اللغة في جامعة إلينوي في المدة من 73-1975.وفي بداية عام 1976م أصبح رئيساً لقسم جديد لعلم اللغة بجامعة سيدني، وظل يشغل هذا المنصب حتى تقاعد سنة 1987، وظل يعمل به بعد التقاعد.

دَرَّس في الجمعية اللغوية التابعة للمعاهد الصيفية اللغوية الأمريكية: في (إنديانا) 1964 وفي (أوكلاهوما) 1966 وفي (متشجان) 1973، ونال العضوية الشرفية للجمعية سنة 1978، كما عمل أستاذاً زائراً في جامعات ييل، وبراون،ونيروبي.

في عام 1969، منحتة جامعة نانسي، بفرنسا، الدكتوراه الفخرية، وفي 1986 م، منحته جامعة سنجابور درجة الأستاذية الفخرية، وفي عام 1981 م، حصل على جائزة دافيد راسّل للبحث المتميز في تعليم الإنجليزية من المجلس الوطني لمعلمي الإنجليزية بأمريكا.

ولا يزال للرجل حتى كتابة هذه السطور عطاؤه العلمي الوافر، وهو يهتم في أبحاثه الحالية بعلم الدلالة، ونحو الإنجليزية المعاصرة، والتطور اللغوي في الطفولة الباكرة، وعلم اللغة النصّي، والاستخدام اللغوي، والتطبيقات

(*) جامعة الإسكندرية

التعليمية لعلم اللغة، والذكاء الاصطناعي، كما تشمل اهتماماته اكتساب اللغتين الأولى والثانية، والشعرية والاضطرابات اللغوية.

لقد كان هاليداي أنبه تلاميذ فيرث، وأكثرهم وعيا بأفكار أستاذه واستيعاباً لها، وقد استطاع أن يمنح هذه الأفكار الوضوح والتماسك اللذين كانت تفتقر إليهما، وأن يضع منذ وقت مبكر إطاراً نظرياً محكماً لنظرية لسانية تقوم على أفكار فيرث، يشاركه فيها بعض زملائه حتى سُمُّوا (الفيرثيين الجدد).

على أن هاليداي لم يكتف بما تمثله من أفكار فيرث، بل وسَّع دائرة معارفه، وأفاد من مصادر أخرى كثيرة في وضع نظرية محكمة للوصف اللغوي صالحة للتطبيق على لغات مختلفة، ومازال بها يطورها ويعدّلها حتى ظنَّ بعض الباحثين أنه عدل أخيراً عن أفكاره المبكرة، واتجه بالنظرية اتجاهاً آخر جديداً.

والحق أن نظريته مرت بمراحل ثلاث. بدأت أولاها بالبحث الذي نال به درجة الدكتوراه سنة 1955 ونشره سنة 1959 بعنوان (لغة الصينيين. التاريخ السريّ للمغول) The Language of the Chinese. Secret History of the Mongols.

وقد استطاع فيه أن يضع إطاراً نظرياً متماسكاً، تُعالج من خلاله العلاقات بين الوحدات اللغوية معالجة منهجية، ثم اتضحت معالم النظرية في هذه المرحلة بالبحث الذي اكتمل قبل وفاة أستاذه فيرث، ونشره عام 1961 م، وعنوانه فصائل نظريّة النحو Categories of the Theory of Grammar . وقد سميت النظرية في هذه المرحلة نحو المقياس و الفصيلة، Scale and Category Grammar..

وقدّ بدأت معالم التطور في هذه النظرية تظهر منذ منتصف العقد السادس من القرن العشرين، وتنامى هذا التطور حتى أصبح يعدّ مرحلة ثانية في حياة النظرية. وقد أفضى هذا إلى بزوغ نموذج أشد إحكاماً أطلق عليه علم اللغة النظامي Systemic Linguistics أو النحو النظامي Systemic Grammar لما أصبح لمفهوم النظام System من أهمية بالغة فيه.

وقد حملت ملامح التطور توجهاً وظيفياً جعل بعض الباحثين يطلق على نموذج هاليداي في هذه المرحلة "النحو النظامي الوظيفي ". على أن هذا التوجه الوظيفي لم يكن بمعزل عن التوجه الاجتماعي، بل ظهر الميل الواضح إلى دمجهما معاً مع اهتمام متنام بالظواهر الدلالية.

أما المرحلة الثالثة، فيمكن التأريخ لها بكتاب هاليداي: مدخل إلى النحو الوظيفي (سنة 1985 م) An Introduction to Functional Grammar إذ كان ثمرة اهتمامه المتزايد بوظائف اللغة في المجتمع وما يعبر عنها من تراكيب. وقد وضع به أسس نظرية وظيفية غير منبتة الصلة عن الأسس المنهجية التي قام عليها فكره اللغوي في المراحل الثلاث، بل إن نحوه النظامي يمثل المرتكز الأساسي لنحوه الوظيفي، ومن هنا تميزت نظريته الوظيفية عن نظريتين وظيفيتين معاصرتين، إحداهما نظرية النحو الوظيفي عند سايمون دك Simon Dik ، والأخرى، نظرية النحو الوظيفي التوحيدي عند كاي Kay.

وفي العام نفسه الذي أصدر فيه هذا المدخل إلى النحو الوظيفي، ظهر له كتاب شاركته فيه زوجته، الهندية الأصل، رقية حسن، عنوانه :

Language, context, and text: aspects of language in social -Semiotic perspective (Oxford University Perss 1985).

والبحث الذي أقدمه اليوم إلى قراء العربية، مترجماً، هو الفصل الثاني من هذا الكتاب، في طبعته الثانية (1989)، التي أعيد إصدارها سنة 1990 من ص : 15- 28. وترجع أهمية هذا الفصل إلى أنه محضه لوظائف اللغة التي أصبحت تمثل محور النظرية. ولم يقتصر الرجل فيه على التنظير، بل عمد إلى التطبيق المفصل على نصين، أحدهما شعري والآخر نثري، وبين على نحو شديد الوضوح والعمق كيف تحققت فيهما وظائف اللغة. وأرجو أن يكون في هذه الترجمة إثراء للدراسة اللغوية العربية المعاصرة بمتابعة الحديث عن نظرية لم يتح لها ما ينبغي من الاهتمام في العالم العربي.

الترجمة (*)...

مدخل:

ماذا نفهم من مصطلح "وظائف اللغة"؟ لعل المقصود من كلمة وظيفة، في أبسط معانيها، أن تكون مرادفة لكلمة "استعمال "؟ لذلك حين نتحدث عن وظائف اللغة فنحن لا نعني إلا الطريقة التي يستعمل بها الناس لغتهم أو لغاتهم، إن كان لهم أكثر من لغة. وإذا عبرنا عن ذلك، بصورة عامة، قلنا إن الناس ينجزون بلغتهم أشياء كثيرة، أي أنهم يتوقعون أن ينجزوا، بالكلام والكتابة والاستماع والقراءة، عدداً كبيراً من الأهداف المختلفة والأغراض المتباينة. ومن المستطاع أن نحاول تعداد هذه الأهداف والأغراض وتصنيفها بطريقة أو بأخرى، وقد حاول عدد من العلماء أن يقوموا بذلك آملين أن يجدوا إطاراً عاماً، إلى حدّ ما، أو نظاماً، لتصنيف الأغراض التي من أجلها يستخدم الناس لغتهم.

ثمة عدد من التصنيفات المألوفة لوظائف اللغة، منها مثلاً ذلك التصنيف الذي قدمه مالينوفسكي واقترن بعمله في السياق situation والمعنى meaning وقد أشرنا إليه قبلاً. لقد قسم مالينوفسكي (1923) وظائف اللغة إلى فئتين واسعتين: مقامية، pragmatic وسحرية magical. ولقد كان، بحكم كونه متخصصاً في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، مهتماً بالاستخدامات العملية أو المقامية للغة، (ثم قسمها بعد ذلك إلى فرعين: فاعلة، active، و روائية narrative)، من جهة، ومن جهة أخرى، كان مهتما بالاستخدامات الطقوسية أو الدينية.

على أن هناك تصنيفاً مختلفاً، جدّ الاختلاف، اقترن باسم عالم النفس النمساوي كارل بيولر K.Buhler، (1934) الذي اهتم بوظائف اللغة من وجهة نظر لا تُعنى كثيراً بالثقافة culture ، لكن بالفرد. لقد ميز بيولر بين اللغة التعبيرية expressive، واللغة التروعية conative، واللغة التمثيلية representational . فاللغة التعبيرية هي التي تتجه إلى النفس، أي إلى المتكلم، واللغة التروعية هي التي تتجه إلى المخاطب، واللغة التمثيلية هي التي تتجه إلى سائر الموجودات، أي إلى أي شيء غير المتكلم أو المخاطب.

لقد استخدم بيولر الإطار التصوري الموروث عن أفلاطون: التمييز بين المتكلم والمخاطب والغائب، وهذا بدوره مأخوذ عن النحو (كان مصدره النحو البلاغي الذي

(*) أشكر للدكتورة/ ماجدة السباعي، الأستاذة المساعدة بقسم اللغة الإنجليزية، بكلية الآداب جامعة الملك سعود، مراجعتها الدقيقة لهذه الترجمة.

جاء قبل أفلاطون)- وهو يقوم على حقيقة أن الأنظمة الكلامية، في كثير من اللغات الأوروبية (بما فيها اليونانية القديمة)، دارت حول فصيلة الشخص، مفرقةً بين الشخص الأول وهو المتكلم، والشخص الثاني وهو المخاطب، والشخص الثالث وهو كل ما عداهما. على هذا الأساس اعترف بيولر بثلاث وظائف للغة، وفق توجيهها إلى شخص أو آخر من الأشخاص الثلاثة. وقد تبنّت مدرسة براغ خطته، ووسّعها من بعدُ رومان ياكوبسون (1960) فأضاف ثلاث وظائف أخرى: الوظيفة الشعرية، Poetic وتوجه إلى الرسالة message، والوظيفة التعاملية transactional، وتوجه إلى قناة الاتصال channel، والوظيفة الماورائية أو الواصفة metalinguistic وتوجه إلى الشفرة code .

لقد تبنى خطة بيولر وطورها في اتجاهات مختلفة المربي الإنجليزي جيمس بريتون (1970)، الذي اقترح إطاراً يتألف من الوظائف التعاملية والتعبيرية والشعرية للغة. لقد اهتم بريتون بتطوير (قدرات الكتابة) عند الأطفال في المدرسة،وتمسك بالرأي القائل إن الكتابة تطورت، أول ما تطورت، في سياق تعبيري expressive، ثم اتسعت القدرة "متجهة" إلى الكتابة التعاملية، من جهة، والكتابة الشعرية، من جهة أخرى. واللغة التعاملية هي تلك التي تؤكد على دور المشارك، على حين أن التأكيد في اللغة الشعرية يكون على دور الكاتب أكثر منه على دور المتلقي.

وقد قدم دزموند موريس (1967) في دراسته الشائقة عن الجنس البشري من وجهة نظر متخصص في السلوك الحيواني، تصنيفاً آخر لوظائف اللغة يتمثل في الحديث الإخباري information talking والحديث المزاجي mood، والحديث الاستكشافي exploratory، والحديث المتلطف grooming، فالأول يقوم على تبادل المعلومات، ويبدو أن موريس كان يعني، ضمنا، أنه يأتي أولاً، على الرغم من أنه يظهر آخراً، في تاريخ حياة أطفال البشر. والثاني، كما هي الحال عند بيولر وبريتون، وظيفته تعبيرية، والثالث حدده بأنه حديث للحديث، يؤدي وظائف جمالية، على حين أن الرابع ثرثرة مهذبة لامعنى لها تستخدم في المناسبات الاجتماعية، وهو ما أطلق عليه مالينوفسكي، قبل أربعين عاماً، "اتصال المجاملة phatic communication"، ويعني به الاتصال الكلامي حين يستخدم الناس تعبيرات مثل: "يوم جميل، أليس كذلك؟"، وسيلة لتسهيل المهمة الاجتماعية، وتجنب الاحتكاك.

وعلى الرغم من أن هذه التصنيفات تبدو جدّ مختلفة، وأن كلاً منها يستخدم مصطلحات مختلفة عن الأخرى، وعلى الرغم من أن أحداً منهم- باستثناء بريتون- لم يقرأ ما كتبه الآخرون، فهناك تماثل كبير بينهم، وهو ما يمكن أن نوضحه بوضع تصنيفاتهم في جدول واحد يعرضها في صفوف، على النحو الذي يكون به التماثل رأسياً، فكل مدخل يماثل على نحو أكثر أو أقل ما فوقه وما تحته. وحين نفعل هذا نستطيع أن نراها جميعاً تسلم بأن اللغة تستعمل للحديث عن أشياء (إخبارية- روائية - تمثيلية)، وهي كلها تسلم بأن اللغة تستخدم لتحقيق أهداف وأهدافك، تعبيراً عن النفس، وتأثيراً في الآخرين (مزاجية- تعبيرية- نزوعية- فاعلة). ولمة أيضاً وظيفة ثالثة للغة تتمثل في الجانب الجمالي أو التصوير المجازي.

الجدول رقم (1)

سحرية				مقامية			مالينوفسكي (1923)
				فاعلة		روائية	
		تعبيرية متكلم		نزوعية مخاطب		تمثيلية غائب	بيولر (1934)
		تعبيرية		تبادلية			
شعرية				نزوعية		إخبارية	بريتون (1970)
حديث استكشافي		حديث مزاجي		حديث متلطف		حديث إخباري	موريس(1967)
استخدام مجازي		استخدام تبادلي للتأثير					
شعري	طقوسي	تعبير ذاتي		دعم متبادل	سيطرة على الآخر	استخدام إخباري موجه إلى المحتوى	

ملحوظة : الأجزاء المظلّلة تمثل الاستخدامات التي لم يوردها المؤلف المذكور أمامها.

الوظيفة خاصية جوهرية للغة :

ما قام به أمثال هؤلاء العلماء كان في أساسه بناءً لإطار تصوري، من نوع ما، بمصطلحات غير لغوية، ناظرين إلى اللغة من الخارج، ومستخدمين هذا الإطار وسيلة لتفسير الطرائق المختلفة التي يستخدم بها الناس اللغة. وعلى أساس من كل هذه التفسيرات لوظائف اللغة، يمكننا أن نقول إن الوظيفة تعادل الاستعمال، فمفهـوم الوظيفة مرادف لمفهوم الاستعمال. بيد أنه كي نواصل أبحاثنا الخاصة بنا علينا أن نخطو خطوة أخرى، خطوة تفسر الاختلاف الوظيفي، لابوصفه اختلافاً في استخدام اللغة، بل بوصفه بنية ذاتية، أو أساساً محضاً لتكوين اللغة نفسها، ولوضع النظام الدلالي على وجه الخصوص.

بعبارة أخرى سوف تُفَسر اللغة، لا بوصفها مجرد استخدام للغة، بل بوصفها خاصية جوهرية للغة نفسها، وشيئاً أساسياً في تطور النظام الدلالي، فكأنما نقول إن تنظيم أية لغة طبيعية يفسَّر في ضوء نظرية وظيفية.

ما أحب أن أقوم به هنا، هو أن أوضح الأساس الوظيفي للغة من خلال تحليل جملة واحدة، وهو أمر محفوف بالمخاطر، لأن ثمة دائماً خطراً يتمثل في أن تعدَّ بعض السمات العارضة، التي هي خاصية لجمل معينة، سمات أساسية للنحو بصفة عامة، فطبيعي أن السمات التي تظهر في

جملة معينة لابدّ أن تكون سمات عارضة، بالنسبة للنظام اللغوي كله. إنها السمات التي اخترناها في هذا المثال. وعلى ذلك، ففي تفسير الجملة، نحاول أن نربط ما نقوله بالفصائل العامة general categories الموجودة في نحو اللغة.

دعنا نمعن النظر في الجمل الآتية :

أو اتركي قبلة في الكأس، ولن أطلب نبيذاً

هذه جملة من قصيدة إنجليزية مشهورة في أوائل القرن السابع عشر الميلادي (بن جونسون : إلى سيليا). إنها ليست البيت الأول، كما يمكن أن نتصور ذلك بسهولة.

إنها في الحقيقة البيت الثاني. ولن أشغل بالبيت الأول الآن، بل أريد أن أقوم بنوع من التعليق التحليلي على هذه الجملة. لا بوصفه – على أية حال– جزءاً من تحليل أدبي، بل بوصفه تدريباً لسانياً نطابق به السمات التي توضح النقطة العامة وهي الأساس الوظيفي للغة.

المعنى التجريبي Experiential meaning

دعنا إذن ننظر أولاً إلى هذه الجملة، من وجهة نظر تتصل بمعناها، بوصفه التعبير عن نوع مّا من العمليات: واقعة ما، حدث، حالة، أو أية ناحية أخرى، يمكن إدراكها في عالم الواقع، ترتبط به بعلاقة رمزية من نوع ما، فإذا نحن حملناها على ظاهرها، إلى حد ما، أمكن تفسيرها على النحو الوارد في الجدول الآتي (جدول رقم 2)

الجدول رقم (2)

التركيب التبادلي

(أنت) اتركي قبلة في الكأس و (أنا) لن أطلب نبيذاً

(أنت)	اتركي	قبلة	في الكأس
فاعل حقيقي	حدث	شيء	موضع
فاعل نحوي	عملية	هدف	ظرف مكان

(أنا)	قطبية	طلب	نبيذ
فاعل حقيقي	نفي	عملية	شيء
قائل		منطوقة	مجال

ولنتأمل كلمة (**اتركي**): إذا أخذناها وحدها فسوف نفسرها بأنها نوع من العمليات، بتحديد أدق: حدث ما. ثم هناك كلمة (**قبلة**) والمفروض أنها نوع من الأشياء، على الرغم من أنه ليس واضحاً كل الوضوح أي نوع من الأشياء تكون، وهي مجال الحدث أو نطاق تأثيره. والذي ربط بين هاتين الكلمتين هو (في + الكأس) وهو نوع من العناصر الظرفية، المفروض أنه ظرف مكان، أي موضع. وعلى هذا فإن عندنا تمثيلاً للحدث، وشيئاً يتأثر بالحدث، ومكاناً يقع فيه. وقد نشعر أيضاً أننا مضطرون إلى أن نسد حاجتنا إلى شخص يؤدي الحدث. من ثم دعنا نضيف – لغرض الإيضاح فحسب– شيئاً يمكن أن نسميه

فاعلاً، أي شخصاً يفعل الفعل، لأن ذلك لا يتحقق صراحة في اللغة.

كذلك الحال في النصف الثاني من الجملة. ثمة كلمة " **نبيذ**" التي هي نوع معين من الأشياء، وكلمة "**أطلب**" التي يمكن أن نعتبرها عنصراً مفرداً، وهي عملية، ولكنها مختلفة عن العملية السابقة؟ إذ إنك تطلب شيئاً، وقد تستخدم نوعاً من أنواع الإشارات، ربما كان إشارة لغوية، لتحقيق هذا الغرض، دعنا نسميها عملية شفوية أو لفظية verbal process. وهناك أيضاً فاعل حقيقي doer، لكن الفاعل الحقيقي يتمثل الآن في كلمة "أنا"، وهو مرة أخرى فاعل من نوع مختلف، ليس فاعلاً نحوياً بل هو فاعل يشترك في العملية اللفظية- أولا يشترك فيها لأنه في الحقيقة منفي- فلنسمّه "القائل "، sayer.

من ثم فإن الجملة- على أبسط مستوى- يمكن أن تعد تمثيلاً لظاهرة مركبة في عالم الواقع، فنحن نعلم أن فيه أشياء مثل الكؤوس والنبيذ، ونحن نعرف أننا حين نتكلم نصبح أشخاصاً : "أنا" و"أنت"، ولدينا تصورات معينة لهذه الأشياء. إننا نعرف أن ثمة عمليات تختص بالطلب والترك، حتى ليمكننا أن نفعل شيئاً ينطبق عليه مفهوم "القبلة"، مع أنه شيء مختلف عن النبيذ، لأنه على الرغم من أنه مشفر نحوياً على أنه اسم فهو عادة اسم لحدث، وليس اسماً لشيء. على أية حال إذا كان مما يمكن أن نتركه في كأس فمن الجائز إذن، عند مستوى معين من التفسير، أن نراه أيضاً شيئاً.

لم نخط حتى الآن إلا خطوة واحدة في تفسير هذه الجملة، من حيث هي تمثيل لظاهرة يمكن إدراكها، لكننا عزلنا من هذه الجملة سمات معينة يمكن أن تعدّ ممثلة لعالم الواقع، كما هو مدرك في تجربتنا. ويمكن القول إنها تعبر عن المعنى التجريبي لتلك الجملة. ومن الواضح أنه سيكون علينا أن نضيف إلى ذلك مكوناً component آخر يأخذنا إلى عالم التمثيل التخييلي أو غير الصريح للتجربة. وتلك خطوة أخرى في التفسير تسمح لنا أن نوضح هذا التصور الغريب في قول الشاعر: :"**اتركي قبلة في الكأس**".

من الممكن أن نعد هذا تعبيراً استعارياً موسعين المصطلح ليشمل أي عنصر من عناصر التمثيل فيه نقل، نقل من نوع ما، كذلك الذي تمثل هنا في النقل المزدوج لمعنى كلمة "قبلة"، لأن كلمة قبلة، بوصفها اسماً، هي فعلاً كلمة استعارية، من حيث إنها اسم لعملية أكثر من كونها اسماً لشيء، تلك الخطوة الاستعارية الأولى هي خطوة مؤسسة داخلة في تكوين اللغة الإنجليزية. وهنا تأتي، على كل حال، الخطوة الثانية: استعمال خاص لكلمة "قبلة" يقتضي عودة- على مستوى أعلى- إلى تصور متمثل في حقيقة أن كلمة "قبلة" اسم، فالأسماء- نمطياً- تدل على مسميات (أشياء)، والأشياء يمكن أن تترك في أرجاء المكان، من ثم نستطيع أن نقول:

"**اتركي قبلة في كأس**" لقد تطلب منا هذا خطوتين لكي نصل إلى هذه النقطة، كل خطوة منهما تضمنت نوعاً من النقل الاستعاري.

إذا نحن تابعنا هذا الخط من الاستدلال، خطوة كل مرة، فسوف نكون قادرين على تكوين سلسلة من الإدراكات الاستعارية تؤدي بنا إلى تفسير هذه الجملة بوصفها ممثلة لما يمكن أن نشفره على نحو أقل استعارية وأكثر مباشرة، كما في نحو: " **قبلاتك أشهى من النبيذ**". وبطريقة أكثر مباشرة ربما نستطيع أن نفسرها فنقول: (**أحب أن أقبلك أكثر من حبي لشرب النبيذ**" وحتى هذا بطبيعة الحال لا يضع نهاية للقصة لأننا من ثم مضطرون إلى

السعي وراء صيغ التعبير والأعراف الأدبية التي تقرر أن هذه الصياغة طريقة ملائمة لإبلاغ رسالة مخصوصة لكن، لكي نقوم بذلك، لابدّ أن نعدل عن صيغة تجريبية للمعنى إلى أخرى، وننظر إلى الجملة نفسها من وجهة نظر أخرى مختلفة.

المعنى التبادلي Interpersonal meaning

انظر إلى الجدول رقم (3)

الجدول رقم (3)

التركيب التبادلي

أو اتركي قبلة في الكأس و لن أطلب نبيـــــذا

أنت	افعلي ذلك		أنا	طوعاً	أفعل هذا
فاعل	بقية		فاعل	محدود	بقية

طلب : رجاء	عرض : تعهد

في النصف الأول نميز شيئاً يدل على الرجاء: **"أرجوك أن تفعلي هذا"** . وهذا بأبسط المصطلحات الدلالية، شكل من أشكال وظيفة الطلب في الخطاب العام. فإذا نظرنا الآن إلى النصف الثاني من الجملة فسوف نميز المعنى: **"لن أفعل ذلك"** أو بعبارة أخرى **"أتعهد بألا أفعل ذلك"**، وهذا شيء يمكن أن نشفره بأكثر الألفاظ شيوعاً مستخدمين كلمة العرض offer.

إننا ننظر هنا إلى ناحية من معنى الجملة جدّ مختلفة. إننا لا ننظر إليها الآن من جهة وظيفتها في تمثيل تجربتنا، بل ننظر إليها من جهة وظيفتها في عملية التفاعل الاجتماعي، فهي لا تفسَّر بأنها طريقة في التفكير، بل طريقة في الفعل فالمعنى هو:

"أرجوك أن تفعلي شيئاً، وأتعهد بألا أفعل شيئاً آخر"– من هنا شفر نوع آخر من المعنى في الجملة نفسها، نوع من المعنى سوف نطلق عليه **"المعنى التبادلي"**، فالجملة ليست تمثيلاً للواقع فحسب، بل هي أيضاً قطعة من التفاعل بين المتكلم والسامع، فعلى حين أن اللغة في معناها التجريـــبي وسيلة عاكسة، فهي في معناها التبادلي وسيلة فاعلة. إننا في الحقيقة نستطيع أن نستخدم هذين المصطلحين فنتحدث عن اللغة بوصفها انعكاساً reflection، وعن اللغة بوصفها فعلاً acting، من حيث هي طريقة للدلالة على المعنيين التجريـــبي والتبادلي.

لاحظ أننا، في التحليل النحوي، نحتاج الآن إلى معرفة مجموعة متميزة أخرى من العناصر، ولن نقوم بالتحليل الآن بمصطلحي "المشاركين Participants" والعمليات Processes. وفكرة الفاعل (المسند إليه Subject)، وعناصر أخرى متصلة به، لا تظهر هنا. ففي العبارة الثانية عندنا المسند إليه "أنا "، وفي العبارة الأولى عندنا المسند إليه "أنت".

(أنت) اتركي قبلة في الكأس و (أنا) لن أطلب نبيذاً

المعنى المنطقي: The logical meaning

إذا نحن جمعنا بين التفسيرين التجريـــبي والتبادلي أمكننا أن نفسر كل عبارة على حدة، لكننا لا نزال مضطرين إلى تفسير حرف العطف "الواو". وبعبارة أخرى: هذان القسمان من الجملة بينهما علاقة على نحو ما، والآن يبدو شكل العلاقة نوعاً من الربط co-ordination البسيط بين شيء وآخر: **(أنت) اتركي قبلة في الكأس و (أنا)**

لن أطلب نبيذا، أو هو على نحو أكثر تحديداً- رجاء، و الآخر عرض offer فما معنى الربط بين رجاء وعرض؟. من الواضح أن هذا شيء يجب أن نعيد تفسيره على أنه شيء آخر غير الربط البسيط بين عناصر متماثلة، فعادة حين نربط (أ) و (ب) فإن (أ) و (ب) ينتميان إلى فئة واحدة. أما هنا فإن (أ) و (ب) لا ينتميان إلى فئة واحدة، إذ إنّ أحدهما طلب والآخر عرض، فما نتيجة الربط بينهما؟ النتيجة أننا نحتاج إلى إعادة تفسيرهما في ضوء علاقة أخرى لا نعبر عنها في الإنجليزية تعبيراً إردافياً Paratactically كما هي الحال هنا، بل على نحو إتباعي hypotactically باستعمال (إذا). وعلى ذلك، فالخطوة التالية التي نحن في حاجة إليها، هي أن ندرك أنه ليس ثمة استعارة في المعنى التجريـــبي فحسب، بل ثمة استعارة أيضاً في المعنى التبادلي، لأن الشيء الذي شفر على أنه "التماس مع عرض" سوف يفسر، في الحقيقة، على أنه عرض مشروط بالموافقة على رجاء. ويمكننا أن نعبر عن هذا بقولنا: **"إذا تركت قبلة في الكأس فلن أطلب نبيذا"**. وعلى ذلك فالمعنى التبادلي هو: إذا أنت **(وافقت على)** أن **تفعلي هذا فأنا (أتعهد بـــ)** ألا أفعل ذلك.

لكننا لكي نخطو هذه الخطوة اضطررنا إلى أن نستنجد بوظيفة ثالثة من وظائف اللغة، أو بجانب ثالث من ترتيب النظام الدلالي هو تعبيره عن العلاقات المنطقية الجوهرية، وهي ليست علاقات المنطق الصوري، بل هي تلك التي أخذت منها في النهاية علاقات المنطق الصوري. أما العلاقات المنطقية، التي أنشئت في اللغات الطبيعية، فهي العلاقات التي يعبر عنها في النحو بوصفها أشكالاً من الربط أو الإرداف Parataxes والتفريع أو الإتباع بالأداة hypotaxes. من ثم فالمكون الثالث في مثالنا، الذي ينبغي أن نعتد به، لتوضيح هذه العلاقة بين الجزأين، هو العنصر المنطقي الذي يمثله معنى: "إذا ..... ف ".

- إذا تركت قبلة في الكأس فلن أطلب نبيذاً

لقد قمنا بعدد من الخطوات لتفسير هذا البيت في اتجاه إيضاح كيفية دلالته على ما يفعل. إذا توقفنا عند هذه النقطة، وعدنا فالتقطنا التفسير الذي ذكرناه من قبل وهو: **"قبلاتك أشهى من النبيذ"**، وجعلناه الآن يتضمن، في المعنى، المكونَ التبادليَّ الفعال، فإننا نستطيع أن نجعله شخصياً، ونعيد تفسير البيت على نحو أقرب إلى المراد، فنقول: **"قبلاتك عندي أثمن من النبيذ"** إننا عندئذ نستطيع أن نعدّ كلمة " قبلة"، وكلمة "نبيذ" عمليتين، فنقول: " **أحب أن أقبلك أكثر مما أحب أن أشرب الخمر**". وإعادة التفسير هذه تؤدي إلى الاستعارة النهائية، حيث تدل الصياغة على " تصريح بالحب ".

ثمة، فضلاً عن ذلك، مثال آخر للعلاقة المنطقية في البيت، تتمثل في استخدام "أو" التي تربطه ربطاً إردافياً بما سبقه. ونحن، على كل حال، لم نمعن النظر بعدُ في البنية النصّية الشاملة. إننا لم ننظر إلى هذا البيت من جهة خصائصه بوصفه خطاباً discourse، فلكي نقوم بذلك نحتاج إلى سياق. من هنا علينا أن نبدأ بما يجب أن نستوفيه في البيت الأول الذي ورد في القصيدة قبله، وهو:

اشربي نخبي بعينيك فحسب و سوف أعاهدك بعيني أنا

أو اتركي قبلة في الكأس ولن أطلب نبيذاً

الآن نلاحظ عدداً من السمات الإضافية في هذا النص:

1- النمط الخاص ب (أنت) افعلي كذا و (أنا) سوف أفعل كذا، تكرر في الحقيقة في الموضعين، أي: (أنا) أطلب منك أن "تفعلي" ذاك و (أنا) سوف "أفعل" هذا، فالمعنى هنا أيضاً على "إذا"، أي: **إذا أنت شربت نخبي بعينيك فسوف أعاهدك بعيني** " وهو مماثل لـ " **إذا أنت تركت قبلة في الكأس فلن أطلب عندئذ نبيذا** " فهنا نمط واحد: طلب متبوع بعرض، وهو في كلتا الحالين عرض مشروط بالموافقة على طلب. هذا التكرار هو نفسه جانب من جوانب " النصيّة" texture.

2- هناك الترتيب الموضوعي، thematic لهذين البيتين، ففي كل منهما حددت الوظيفة الكلامية في صدر العبارة بجعلها تمثل الموضوع. إنها كالإعلان عند البدء:

"**ما أوشك أن أقوله طلب** " أو يكون ما يكون.

هذه المطابقة بين الموضوع theme والصيغة الفعليةmood ليست غريبة على وجه العموم. إنها في الحقيقة النموذج النمطي الذي يستخدم لكل عرض offer وطلب command، حيث يبدأ المتكلم في الأغلب بالعنصر الذي يعلن عن الصيغة (وكونه نمطياً لا يقلل من أهميته بالقياس إلى البنية النصية).

3- ثمة مكون آخر في "النصية" يعتمد على الإيقاع rythm والتنغيم intonation، وهو ما يجعلنا نتبع من أجله طريقة خاصة في قراءة البيتين، أود أن أوضحها على النحو الآتي: (الشرطة المائلة أو الشرطتان تدل أو تدلان على نهاية التفعيلة(*)، والعلامة (⌒) التي توضع تحت مستوى السطر تدل على إيقاعة beat غير منبورة).

//⌒ or / leave a / **Kiss** wi / thin the / **cup**
⌒ // and / I'll not / ask for/ **wine** //

إذا أنت قبلت هذه القراءة فعندنا إذن ثلاث نقاط لعلو الإيقاع أو البروز prominance، هي : **قبلة، وكأس، ونبيذ.** هذه القصيدة، بطبيعة الحال، مألوفة عند أغلب الإنجليز من حيث هي أغنية، منذ أن لحنت، أكثر من كونها كلاماً يقال: لكنها إذا نطقت بطريقة طبيعية، دون موسيقا، فهذه إذن هي المواضع المحتملة التي يظهر فيها البروز.

هذا النوع من البروز سمة من سمات النظام الفونولوجي، في الإنجليزية الحديثة، الذي تقسم فيه أية قطعة من خطاب منطوق إلى تتابع من مجموعات نغمية أو وحدات منغمة، لكل منها حد نغمي فاصل (قد بينته الشرطتان المائلتان (//) في المثال السابق). وليست المجموعة النغمية مجرد وحدة صوتية، وإنما هي تعبير عن "وحدة معنى"، عن كتلة واحدة من المعلومات في مجمل الرسالة. وفي كل وحدة معلومات نقطة بروز هي نواة النغم (وقد أظهرت هنا بكتابتها بالخط البارز)، والبروز أيضاً سمة فونولوجية. إنه القطعة التي تحمل أكبر قدر من الحركة المنغمة، لكنه مرة أخرى يعبر عن بروز في المعنى.

إنه يشير إلى بؤرة المعلومات في الوحدة، هذه البؤرة تدل على ذروة المعلومات الطارئة (سواء أكانت جديدة أم تقابلية)، من ثَمَّ فالنمطان كلاهما- التقسيم إلى وحدات من المعلومات، وتحديد موقع البؤرة في كل منها- يكونان معاً عنصراً جوهرياً في "نصيّة" اللغة المنطوقة.

4- النص في الحقيقة بيت من الشعر، ولذا فإن له إيقاعاً نموذجياً بسبب انتمائه إلى نوع أدبي مخصوص. بعبارة

(*) التفعيلة foot في الشعر الإنجليزي تتكون من مقطعين أحدهما منبور والآخر غير منبور. (المترجم)

أخرى، إنّ له بحراً حددته صيغة شعرية مخصوصة جاء مثالا لها، وهي هنا البنية العروضية المرتبة في شكل تقليدي:

/ or leave / a Kiss /within / the cup / and I'll /not ask for wine /(...)/

باستثناء أنه، في علم العروض التقليدي، قد يقال إن في البيت سبع تفعيلات، على حين أن فيه في الواقع ثماني تفعيلات، لأن ثمة تفعيلة صامتة في النهاية. فهو بيت ذو ثماني تفعيلات، يتكون كل منها من مقطعين: قصير وطويل (إيامبك). وهذا النمط العروضي سمة أخرى من سمات البنية النصيّة. والإيقاع الحقيقي للبيت نتاج للتوتر الحاصل بين بنيته العروضية وإيقاعه الطبيعي الذي يكون له في حوار بالإنجليزية المنطوقة.

إننا نستطيع، إذا أردنا، أن نمضي إلى مرحلة أبعد، فنحلل البيت بمصطلحات حين تتصل بتنغيمه حين ينطق بصوت عالٍ. ومرة أخرى سوف يكون هناك التوتر الحاصل بين الفواصل النغمية في الخطاب الطبيعي، والخواص التنغيمية للحن الموسيقي.

كل هذه السمات – التوازن الدلالي والنحوي بين البيتين، والبنية الموضوعية، ثم البنية العروضية– تمثل جوانب مختلفة من نصية البيت. إننا نشير إلى كل هذا على أنه معناه النصي، والمعنى النصي هو الذي يجعل من البيت نصاً يميزه عن نمط الصياغة المصطنعة أو المتحجرة.

خلاصة القول، أننا ميزنا الآن أربعة جوانب مختلفة لمعنى البيت هي في الحقيقة المكونات الأربعة في علم دلالة أية لغة. ولكي نكون قادرين على استخدام هذه المفاهيم، فإننا في حاجة إلى أن نكون قادرين على أن نتحدث عنها، وقادرين على أن نعطيها أسماءها. وسوف نشير إليها على النحو التالي:

experiential	المعنى التجريبي
Interpersonal	المعنى التبادلي
logical	المعنى المنطقي
textual	المعنى النصي

إن خيوط المعنى هذه كلها متداخلة النسج في تركيب الخطاب. إننا لا نستطيع أن ننتقي كلمة مفردة أو عبارة ونقول: إن لهذه معنى تجريبياً فحسب، أو إن لتلك معنى تبادلياً فقط. ما كان علينا أن نقوم به، في تحليل نصنا، هو أن نعود كل حين إلى الجملة كلها. ونفحصها مرة أخرى من وجهة نظر جديدة.

وهذه نقطة مهمة ينبغي الالتفات إليها، لأن ثمة قدراً من سوء الفهم لمفهوم وظائف اللغة، فكثيراً ما يفترض أن لكل جملة وظيفة واحدة فحسب، أو على الأقل وظيفة واحدة أساسية. فإذا أقررنا بأن الجملة متعددة الوظائف فذلك يقتضي أن يكون من الممكن أن نشير إلى كل جزء منفصل من الجملة ونقول: هذا الجزء من الجملة له هذه الوظيفة، وذلك الجزء له تلك الوظيفة، والجزء الآخر له وظيفة أخرى، لكن الحياة، على وجه العموم، ليست كذلك، ومن المؤكد أن اللغة ليست كذلك، فكل جملة في أي نص متعددة الوظائف، لكن ليس بتلك الطريقة التي تجعلك تشير إلى مكون معين أو قطعة معينة ثم نقول: هذه القطعة ليس لها إلا هذه الوظيفة. إن المعاني تنسج معاً في نسيج كثيف بطريقة– لكي نفهمها– ينبغي ألا ننظر إلى أجزائها المختلفة نظرة منفصلة، بل الأحرى أن ننظر إلى الشيء كله، على نحو متزامن، من عدد من الزوايا المختلفة. وكل جهة من جهات النظر تسهم في التفسير الكلي. وتلك هي الطبيعة الأساسية للاتجاه الوظيفي.

العلاقة بين النصّ ومقامه:

قبل أن نفرغ من هذا البيت دعنا الآن ننظر إليه من وجهة نظر وظيفة الشيء كله في سياق أوسع متبنين وجهة النظر التي ناقشناها في الفصل الأول حين تكلمنا عن العلاقة بين النص والمقام context of situation، فقد نكون قادرين على قول بعض الأشياء عن هذا البيت، ومن ثم عن القصيدة كلها ضمناً، وذلك بالمصطلحات الآتية: المجال Field ونوع المشاركة Tenor والصيغة Mode. فما الذي يمكن أن نقوله تحت تلك العناوين؟.

أما فيما يتعلق بمجال الخطاب- وهو الفكرة العامة التي يدور الكلام حولها- فإننا نستطيع أن نقول بوضوح إنه " قصيدة حب". بأشد الألفاظ عموماً فإن مجال الخطاب هو "الحب"، لكنه حب معبر عنه تعبيراً استعارياً باستخدام مفاهيم الشراب والنخب.

أما عنواننا الثاني، وهو نوع المشاركة، فيركز على العلاقات الشخصية القائمة: من هما المشاركان في هذا النص؟ بوضوح، وبأشد الألفاظ عموما: هما رجل وامرأة، وبتحديد أكثر هما حبيب وحبيبة. وينبغي أن نضيف، على أية حال، أن ثمة عنصراً فرعيا هنا هو أنّ هذه قصيدة، وذلك يعني أنها نص عام، ولا نعرف، على وجه التحديد، في أي مرحلة من مراحل وجودها أصبحت نصاً عاماً. لقد كان هذا، على أية حال، نوعاً معترفاً به وشائعاً في بداية القرن السابع عشر. ومن جهة أخرى قد يكون في المقام الأول قصيدة حب كتبها شاعر لحبيبته قبل أن ترى النور بوصفها نصاً عاماً. أياً ما كان الأمر، هذا النص نوع ثانوي من المشاركة يتعلق بشاعر يوجه الخطاب إلى معاصريه.

وأما الثالث الذي يتعلق بصيغة الخطاب، فينبغي القول بأنه الجزء الخاص الذي تقوم فيه اللغة بدور في العملية التفاعلية. في المثال الأول عاملناه على أنه نص منطوق، وهو بطبيعة الحال وثيقة مكتوبة. ولهذا دعنا نقول إنه منطوق/ مكتوب. ويمكننا أن نحدده، على نحو أكثر تفصيلاً، بأنه قد يكون كتب ليلقى بصوت عال، لكن علينا أيضاً أن نقول إنه منغَّم، تمييزاً له عما هو تلقائي. إنه تعبير من نوع أدبي معترف به، يتطلب صيغاً من التعبير، متقنة إلى حدّ كبير، ومنغلقة على ذاتها إلى حدّ ما، ويشار إليها غالباً على أنها تصور غريب، أو "استعارات تخييلية" بعضها (وليس كلها) يَبْدهُنا بخروجه عن المألوف. وهذا بدوره نتاج مرحلة مخصوصة في التاريخ الاجتماعي/ الثقافي لإنجلترا فيما بعد العصر الإليزابيثي.

ما الذي يمكننا أن نقوله عن العلاقة بين هذه العنوانات: المجال، ونوع المشاركة، والصيغة، وعن السمات اللغوية الخاصة الموجودة في القصيدة؟ يمكننا أن نرى أن المجال- وهو في الواقع قصيدة حب مع تصور للحب قد تحقق استعارياً على هذا النحو- قد انعكس ببساطة شديدة على المفردات، وعلى تحديد العمليات Processes، والمشاركين Participants، إنه منعكس في استعمال الكلمات " **اشربي**"، " **اشربي وأعاهد**"، و"**كأس**"، و "**نبيذ**"، و"**عيني**"، و"**قبلة**" وهي تتضمن عنصرين أساسين: عنصر "**الشراب**" المتمثل في الكلمات "**اشربي، اشربي وأعاهد، كأس**" من جهة، ومن جهة أخرى "**موتيف**"، الحب المتمثل على وجه الخصوص في "**العينين**" و"**القبلة**". وثمة بطبيعة الحال تفاعل معقد بين هذين العنصرين يتمثل في فكرة الكأس التي مستها الشفتان بما يشبه القبلة، وفي العينين اللتين تلتقيان عبر الكأس كما في الحب.

لكن مجال الخطاب لم ينعكس على المفردات فحسب، بلى كان متضمناً أيضاً في تعدية التراكيب في النحو: في العمليتين الفعليتين: " **أعاهد**"، و"**أطلب**". وفي العمليتين "**اشربي**" و " **القبلة**"، لكن ليس- كما نلاحظ- "**يشرب** "+ "**نبيذاً** " أو "**يقبل**"،+ ""**شخصاً**"، فهذه أفعال غير متعدية في القصيدة، فليس هناك مفعول به لـــ "يشرب " أو "**يقبل**".

والآن إذا نظرنا إلى هذا النمط، بمزيد إمعان، أمكننا أن نرى السمات المقامية، التي أدخلناها تحت مجال الخطاب، قد انعكست انعكاساً كبيراً على واحدة فقط من صيغ المعنى في القصيدة، هي تلك التي أشرنا إليها بالصيغة التجريبية. وعلى هذا، هناك نوع من العلاقة النظامية بين الاثنين يمكننا أن نعبر عنه على النحو الآتي: **يعبر عن المجال من خلال الوظيفة التجريبية في علم الدلالة.**

ثانياً: إذا نحن تأملنا نوع المشاركة في الخطاب الذي له صلة بعلاقة رجل بامرأة، حبيب وحبيبة على وجه التحديد، وبعلاقة الشاعر بمعاصريه، فكيف كان التعبير عن هذه الناحية من المقام؟ كان من خلال اختيار الشخص بالمعنى النحوي: "**أنا**"و "**أنت**"، وكان هذان هما المسند إليهما في هذين البيتين، ومن جهة أخرى، كان من خلال اختيار الوظيفة الكلامية " **الطلب** " (الرجاء تحديداً) والعرض (التعهد تحديدا). فالطلب قد تحقق، نحوياً، من حيث هو جملة أمرية : "**اشربي نخبي بعينيك فحسب**" ، "**اتركي قبلة في الكأس**"، وتحقق العرض، نحوياً، من حيث هو جملة خبرية المسند إليه فيها "**أنا**" فضلاً عن أداة الاستقبال "سوف" "**وسوف أعاهدك بعيني أنا، ولن أطلب نبيذاً**".

إن هذا يمثل نوع المشاركة، أي العلاقات الشخصية اللازمة، بتشفيرها في استعارة بارعة محكمة الصياغة مثل: افعلي هذا، وسوف أفعل ذاك، وهذا بدوره يعد تمثيلاً للعلاقة العرفية التي تظهر دائما في هذا النوع الأدبي، عرف الحبيبة المتمنعة التي ينبغي أن تحمل على الموافقة والاقتناع. وكما أننا كنا قادرين على أن نقف على سمات معجمية- نحوية lexico-grammatical، بوصفها عاكسة للمجال خاصة، أي تلك التي حددناها بوصفها حاملة المعنى التجريبي، فإننا نستطيع كذلك أن نقف على سمات معجمية- نحوية أخرى بوصفها عاكسة لنوع المشاركة، على وجه الخصوص، أي تلك التي حددناها بوصفها حاملة للمعاني التبادلية. بعبارة أخرى: **يعبر عن نوع المشاركة من خلال الوظيفة التبادلية في علم الدلالة.**

وأخيراً، حين نأتي إلى صيغة الخطاب في الشعر الغنائي في نوع أدبي مرتبط بالشعراء الميتافيزيقيين، فإن ذلك الارتباط يحدد- بالإضافة إلى النمط العروضي- الموضوع الذي يختار الشاعر الكتابة فيه. إنها سمة عامة في الشعر الغنائي أن يوجه موضوعه على نحو قوي إلى شخص، حتى يكون الشاعر والمخاطب هما الموضوع: "فأنا" و"أنت" يأتيان أولاً. فضلاً عن ذلك فالقصيدة بوضوح، نص مكتفٍ بذاته، وقد انعكس هذا في قوة النصية الداخلية، في التوازن الذي لاحظناه بن العبارتين الأوليين. وكل هذه السمات مجتمعة تدل على الصيغة. مرة أخرى، لهذا يمكننا أن نسجل ملاحظة عامة هي أن الصيغة تنعكس نمطيا في السمات المعجمية النحوية التي كنا قادرين على تحديدها بوصفها حاملة للمعاني النصية:

يعبر عن الصيغة من خلال الوظيفة النصية في علم الدلالة.

تلخيصا لهذه الفقرات القليلة الأخيرة يمكننا أن نصوغ العلاقة بين المقام والنص على النحو المذكور في الجدول رقم 4:

الجدول رقم (4)

علاقة النص بالمقام (= سياق الحال)

المقام سمات السياقه	يتحقق بـــ	النص المكون الوظيفي في النظام الدلالي
مجال الخطاب ما يدور حوله		المعاني التجريبية التعدية، التسمية ...إلخ
نوع المشاركة في الخطاب من يشترك في الحديث		المعاني التبادلية ا لصيغة، الصيغية، الشخص.... إ لخ
صيغة الخطاب الدور المخصص للغة		المعاني النصية الموضوع- المعلومات- علاقات متماسكة

الوظائف والمعاني في النص:

نوع النمط الذي وجدناه في بيت الشعر السابق- حيث استطعنا، على نحو منظم، أن نربط عناصر المقام بمكونات المعنى في النص- ليس شيئاً مصنَّعا لهذا النص المخصوص، بل هو في الحقيقة سمة عامة في كل النصوص. دعنا ننظر مرة أخرى في مقتطف من حديث إذاعي قدمه أسقف وولويتش(*) من حيث هو مثال لنص من نوع مختلف، جدّ الاختلاف، عن النص السابق. وقد كان هذا الحديث مناقشة عن طبيعة العقيدة المسيحية، ودفاعاً عن هذه العقيدة في مواجهة إلحاد القرن العشرين. وقد حددنا مجاله، ونوع المشاركة فيه، وصيغته على النحو الآتي:

المجال : المحافظة على نظام من العقائد تقوم عليه مؤسسة دينية، الديانة المسيحية، موقف الأعضاء منها، نصف اصطلاحي.

طبيعة المشاركة: سلطة (بكلا معنييها: أي شخص بيده سلطة، وشخص متخصص يوجه خطابه إلى جمهور)، جمهور غير مرئي وغير معروف (كجمهور القراء) لكن العلاقة نظامية (من قس إلى جمهور).

الصيغة : مكتوب ليقرأ بصوت عالٍ، فعل عام (وسيلة الإعلام: الراديو) حديث من طرف واحد (مونولوج). نص هو كل النشاط المتعلق بالموضوع، مقنع، مع استخدام الاستدلال المنطقي.

ولننظر ما في هذا النص الذي يكشف عن السمات المتعددة لسياقه :

(*) ذكر هاليداي هذا المقتطف في الفصل الأول من الكتاب ص 13- 14، ولم يعد ذكره هنا، وسوف أورده مترجما ليستطيع القارئ متابعة المناقشة:

(من حديث إذاعي لأسقف وولويتش:

.... لذلك ينبغي أن يأخذ المسيحي الإلحاد مأخذ الجد لا لكي يكون قادراً على الرد عليه فحسب، بل لأنه هو نفسه ينبغي أن يظل مؤمنا في منتصف القرن العشرين. آخذين ذلك في الحسبان فإني أسألك أن تتعرض لطاعن الإلحاد الثلاثة الجديدة، فهي ليست مجرد ثلاثة أنماط من الإلحاد كل منها موجود بدرجات متفاوتة في أي نمط يمثلها، بل هي ثلاثة بواعث دفعت الناس أن يتساءلوا أو يشكوا في الإله الذي نشأوا ونشأنا في ظله، وهي متمثلة في عبارات ثلاث موجزة.

- الإله عقلاً غير ضروري
- الإله عاطفة يمكن الاستغناء عنه.
- الإله أخلاقا لا يطاق.)

فيما يتصل بالمجال عندنا مرة أخرى بوضوح شديد المفردات- كلمات وظيفتها أنها أسماء، فثمة وحدات معجمية تعبر عن معنى المسيحية، والمحافظة على المعتقدات، وهي لا تقتصر على لفظتي "**إله**، و" **مسيحي**"، بل تشمل أيضاً "**الإلحاد**"، و"**المؤمن**"، وتعبيرات من نحو (**البواعث التي تدفع المرء إلى الشك** " وفيه أيضاً كلمات تستخدم في الهجوم، ومقاومة الهجوم، **الاستعارة العسكرية** في المقدمة، كما كان دائماً في الكتابات المسيحية، حيث ينبغي أن يكون مفهوم المسيحي المحصّن في المقدمة. وثمة أيضاً كلمة "مطاعن"). فإذا أضفنا إلى الجملتين التاليتين المقتطف التالي، فسوف نجد كلمة"**دفاع**" و"**تقدم**" و"**استسلام**".

لكن، مرة أخرى، ينبغي ألا يعني هذا ضمناً أن المفردات هي التي حملت المعنى التجريبي منفردةً، فالكلمات في وظيفتها بوصفها أسماء هي حقاً جانب من أنماط التعدية في النحو، وأنماط العملية التي تحدثنا عنها، وهي تلك التي تحمل حقاً المعنى التجريبي. في هذا النص، كما هو المتوقع من النظر إلى مجال الخطاب، نجد بصفة أساسية نوعين من العمليات:

1- من ناحية، هناك العمليات العقلية mental التي تعكس ما يمثل قطعة من الخطاب ذات ارتباط وثيق بالفكر، عمليات يعبر عنها بالكلمات مثل: "**أخذه مأخذ الجد**" "**أجاب**"، "**يتعرض لـ**"، "**شك**"، **تبرير**". وأهمية هذا ليست في الكلمات المخصوصة، بقدر ما تتمثل في حقيقة أنها جميعاً تعبيرات لنوع واحد من العمليات في اللغة، ذلك النمط من العمليات العقلية الذي يمكن ضمناً أن نعبر عنه تعبيراً لفظياً. إنها أفكار يمكن أن تقال بصوت عال. إن هذه هي وظيفتها في النظام الدلالي في الإنجليزية الذي هو محور اهتمامنا هنا.

2- النوع الثاني من العمليات الموجودة في هذا النص، مرة أخرى كما هو متوقع، هو العملية العقلانية، حيث يتركز النقاش حول مشكلات الوجود والمرجعية. وهذه يعبر عنها من خلال عمليات علاقية بأفعال من نحو: "يمثل "، "يكون"،... وهكذا، فمجال الخطاب ملحوظ بوضوح في أنماط التعدية التي هي التعبيرات اللغوية الأولية عن الوظيفة التجريبية.

وطبيعة المشاركة، كما رأينا، هي التي تصدر من القسّ إلى الجمهور، وقد انعكس هذا نمطياً في السلسلة: أطلب منك (أن تفعل شيئا) ثم دعنا (نفعل شيئاً معاً) بعبارة أخرى يكون التفاعل بعبارة هأنذا القس وها أنتم أولاء الجمهور، وأنا أدعوكم إلى فعل شيء، لكنني أريدكم أن تنظروا إلى هذا على أنه شيء نشترك فيه معاً، فدعونا ... (تأمل هذه عوداً على بدء). وقد استمرت الفكرة المتكررة (الموتيف) نفسها في المقطوعات التالية حيث يشير المتكلم إلى "تنشئتهم" و "وتنشئتنا" و "نا"، هنا تعني المخاطبين والمتكلم، و "نحن" التي يراد بها الشمول مقصودة هنا.

ثم هناك صيغة الفعل، وهي التعبير عن وظيفة الكلام في النحو التي تعرض نمطاً شائقاً، فالأسقف يتكلم بوصفه سلطة وهي، كما أشرت، سلطة فعلاً بالمعنيين اللذين يدل عليهما اللفظ، فهو متخصص، أي أنه سلطة أكاديمية، بوصفه عالم لاهوت،وهو أيضاً راعي أبرشية، أي سلطة كنسية. وقد شفر دوره بوصفه متخصصاً في عبارات إخبارية، حيث يكون المعنى: "**هذه هي الكيفية التي تكون عليها الأشياء**" وهذا هو التفسير، وشفر دوره بوصفه راعياً في عبارات أمرية حيث يكون المعنى: **هذا ما ينبغي عليكم (وعلي) فعله**. وأوامر غير مباشرة من أنواع مختلفة (مثلاً: **على المسيحي أن يأخذ الإلحاد مأخذ الجد**)، وعلى هذا

فالتأثير العام مضاعف. هذا هو المقام:أنا أحدثك حديث المتخصص: هذا ينبغي أن يفعل، كما أحدثك بوصفي راعي أبرشية.

ثم مرة أخرى نوع المشاركة أي العلاقة بين المتكلم وجمهوره منعكسة في الأنماط النحوية التي تعبر عما نسميه المعاني التبادلية.

وأخيرا الصيغة، فهي خاصة بنص مكتوب ليلقى بصوت عال، لكنه مكتوب بحرص شديد. إنه بسيط نحوياً إلى أقصى حدّ، ومكثف معجمياً إلى أقصى حد. والجمع بينهما سمة من سمات اللغة الرسمية المكتوبة. إنه على النقيض من اللغة التلقائية التي تميل إلى أن تكون معقدة.

لقد ميزت هذا النص تراكيب نحوية بسيطة، مع قدر ضخم من المادة المعجمية الممزوجة بها. هذا النص أيضاً استدلال منطقي، وهو بذلك يتتابع من خلال روابط مثل: "لهذا"، "آخذين في الحسبان"، "بدوره" "أولاً"، "التالي" و هلم جرا. إنه مصوغ صياغة نصية عالية، لكن، بصفة أساسية، من خلال نوع من التماسك خاص به.

حيث تكون إحالة إلى سابق، كما هي الحال دائماً في أية مادة نصية، يحال دائما إلى نص. بعبارة أخرى حين تستخدم كلمات مثل: "هذه"، "هي"، "هم" فهي لا تحيل إلى أناس أو إلى أشياء، لكن إلى قطعة من الاستدلال السابق. وتلك خصيصة للخطاب المنطقي الاستدلالي الدقيق. مرة أخرى الصيغة، وهي الجزء الخاص الذي تقوم فيه اللغة بدور في الحدث الكلي- طبيعة الوسيلة والوظيفة الخطابية- منعكسة فيما أسميناه المعاني النصية، شاملة الأنماط المتماسكة.

أعتقد أن هذا الذي ذكرناه، بأبسط الألفاظ، هو الطريقة التي يقوم بها المتكلمون بتنبؤات عن المعاني التي ينبغي أن تتبادل، وقد كانت هذه هي النقطة التي بدأت منها في الفصل الأول. تخيل أنك دخلت، كما نفعل كثيراً في الحياة الواقعية، إلى موقف كلامي كان قد بدأ فعلاً، لا يهم أي موقف يكون، فقد يكون جماعة من الناس يشتركون في أي نوع من النشاط، وقد دخلت أنت فرداً على الجماعة. إنك سوف تكون قادراً بسرعة شديدة على أن تشترك معهم في الحوار المتبادل. كيف تفعل ذلك؟ إنك تفعله، فيما أرى، ببنائك في ذهنك نموذجاً للمقام: وأنت تفعل ذلك بالطريقة الآتية: إنك تحدد له "مجالاً" بملاحظة ما يجري، ثم تحدد نوع المشاركة بالوقوف على العلاقات الشخصية القائمة، وتحدد الصيغة بملاحظة ما يمكن تحقيقه باللغة. إنك تقوم بتنبؤات عن أنواع المعاني التي من المتوقع أن تكون محور الاهتمام في هذا الموقف الكلامي الخاص. فأنت تأتي وذهنك متيقظ، ومعك بعض جوانب لغتك معدّة من قبل- لتستخدم في الحديث المتبادل. شيء مثل هذا، فيما أعتقد، هو الذي يحدث، وإلا فمن المستحيل أن نفسر كيف يمكننا في الحياة الواقعية أن نشترك بهذه السرعة في موقف ما لم نكن نعلم عنه من قبل شيئاً.